محرر: حمزة ماهر الفواز

معنى أن تكون ماركسياً

لا نستطيع أن نغيّر العالم إلا إذا فهمنا القوات الفعلية التي تدور حولنا. تعطي الماركسية لنا الأدوات الضرورية لفهمها.

من المؤسف أنه لا يوجد أي كلمة للماركسية أحسن من الـ"ماركسية". من المعروف أن ماركس قال مرةً عن نفسه إنه "ليس ماركسياً" إذا تبيّن أن بعض التفاسير المنحرفة لنظرياته عن المادّية التاريخية والرأسمالية تُعتبر "ماركسية". جزء من المشكلة هو أن النظريات والعمليات التي ماركس ساعد في صناعتها كبيرة جداً لتقع تحت كلمة واحدة؛ كان ماركس فيلسوفاً (ونوعاً ما مؤرخ) للاقتصاد السياسي، أي: دراسة الإنتاج والتجارة وارتباطاتها بقوانين وعادات ونظم بشرية. ساعدت نظرياته في تطوير المجالات والمهن المتعددة الأخرى: الاقتصادية وعلم الاجتماع والتاريخ والأدب والسياسة العملية ومجالات أخرى.

أقرب المقارنة التي أستطيع أن أفكر فيها هي ما نسمّيه اليوم "الداروينية"، نظريات تشارلز داروين، عالِم أحياء القرن التاسع عشر. لم يخترع داروين علم الأحياء ولا علم الحفريات ولا علم الجينات ولا أي من المجالات والمهن المتعددة التي الداروينية ساعدت في تطويرها. وفي الحقيقة، هناك الكثير من أوجه الداروينية الكلاسيكية — النظريات والنتائج التي داروين وتلامذته المباشرون توصّلوا إليها — التي قد روجِعت أو رُفِضت من قبل ناس ما زال يعتبرون أنفسهم "داروينيين". منذ أن أصدر داروين "أصل الأنواع" و"أصل الإنسان"، وسّعت وحسّنت المئاتُ إن لم يكن الآلاف من علماء وفلاسفة نظرياتِ داروين المعروفة باسم "التركيب الحديث" – وطبعاً كان هذا التحسين من الضروري لأنه ما وُجدت فكرة عميقة لعلم الوراثة الجزيئي في عصر داروين.

من المفيد التفكير في الماركسية بنفس الطريقة. ليست الماركسية خطة مفصَّلة لكيفية صناعة الاشتراكية. ليست الماركسية فلسفة للأخلاق بنفس الطريقة التي حاول فيها فلاسفة عصر التنوير ومتحدّروهم كجون رولز بأن يبنوا نظم الأخلاق من المبادئ الأولى لتحديد ما هو الأعدل. لا تعلّمنا الماركسية القيام بتمرُّد عنيف.

ماركس، من خلال تحليله لمجتمع البشرية أعطى لنا فهماً للقوانين التي تحدد كيف المجتمع يتطوّر وكيف نستطيع أن نفهم تقدّم التاريخ. تُعلِمُنا نظرياتُه لعزل العمل والصراع الطبقي الأسباب وراء العناء البشري وعوائق الازدهار البشري. هذه هي "المادية التاريخية" التي تكون الطابَع الأقوى في أعماله. بشكل بسيط، المادية التاريخية هي النظرية التي تدّعي أن المجتمعات البشرية تتطور بحسب كيف "قوات الإنتاج" تنتظم وتدّعي أن الميزات في مجتمع سترتبط في النهاية بتنظيم قوات الإنتاج. الناس سترتبط بنظام الإنتاج كطبقة وهكذا الصراع الرئيسي في المجتمع هو بين طبقات التي تقع تحت جانبين معارضين لنظم الإنتاج — هذا هو الجزء الجدلي من نظريته.

بنفس الطريقة التي فيها داروين لم يكن "التطويري" الأول ، لم يكن ماركس الاشتراكي الأول على الإطلاق. وكداروين وكلمة "التطوير"، عنت "الاشتراكية" شيئاً مختلفاً نوعًا ما قبل أن يأتي ماركس. بشكل أساسي، كانت الاشتراكية نظام أخلاق أحياناً متجذر في قيم مسيحية التي تكون يوطوبية من طبيعتها وأحياناً مبرَّرة على أساس ما يُعتبَر "من المنصف" أو "من العادل". ماركس وإنجلز قضوا الكثير من سنواتهما

الحافلة بالنشاط في توضيح اختلافات نظرياتهما عن النظريات السابقة للاشتراكية الـ"يوطوبية" المبنية على معتقَدات الأخلاق — حتى أصدر إنجلز كتيّباً عن الموضوع.

أحدث داروين ثورة في نظريات موجودة للتطوير من خلال إدخال الفكرة للانتقاء الطبيعي على طول الوقت الجيولوجي — لكنه يجب أن يُذكر بسبب نظريته للانتقاء الطبيعي أكثر من ما يُذكر بسبب التطوير؛ العنوان الأولي لكتابه "أصل الأنواع" كان "الانتقاء الطبيعي". بنفس الطريقة، أخذ كارل ماركس تحليلاً تاريخياً وفلسفياً موجوداً لمجتمع البشرية والاقتصاد السياسي وهو طبّق منهجية موضوعية مما طوّر هو نظرية المادية التاريخية/المادية الجدلية.

ما الماركسية تدرّسنا إياه ببساطة أن نستخدم منهجية لأسئلة اجتماعية من وجهة نظر مادية: كيف تستمر الحياة البشرية؟ من خلال إنتاج السلع والخدمات الضرورية للعيش. كيف تُنتَج هذه الأشياء تحت مجتمع رأسمالي؟ من خلال استغلال عمل الطبقة العاملة، يعني، من خلال إجبار طبقة واحدة لبيع عملها كسلعة لطبقة أخرى لإنتاج قيم. ما نتيجة هذا النظام؟ أن العمال يصبحون منعزلين عن عملهم، يعني عن جزء كبير من حياتهم اليقظة، متطلَّبين باستمرار بإنتاج أكثر وأكثر مع إمكانية الحصول الغير مستقرة باستمرار على وسائل العيش.

إذا أردنا أن نشارك في منافسة وتحليل سياسي لما ماركس سوف يسمّيه "الاقتصاد السياسي" فلا يوجد بديل عن الماركسية يشتمل شيئاً مقترباً من قوتها أو من إرشادها التفسيري. وعلى الرغم مما قلته، أنا أفهم الحذر الممكن عند اشتراكيين أو ديمقراطيين اجتماعيين في الاشتراك بـ"الماركسية": تركيز ماركس في "الصراع" الطبقي و"إسقاط" الطبقة الرأسمالية و"ديكتاتورية البروليتاريا" كلها قد تبدو للآذان الأمريكية الحديثة كحل مقترَح للعنف و الاستبداد

من المهم فهم ما يعنيه ماركس بهذه الأشياء.

لا يعني الصراع الطبقي بشكل ضروري وضع الحواجز في الشوارع والإعدام الموجز لبلوتوقراطيين. لكن إمكانية نشأة هذه الأشياء من الصراع هي حقيقة تاريخية؛ لكن "الصراع" الذي ماركس يتكلم عنه هو المنافسة الاجتماعية والسياسية المستمرة بين طبقات، سواء في شكل مطالبة الأجر أو عريضات أو تغييرات بالقوانين أو إضرابات أو عدم امتثال وحتى الانتفاضة المسلحة. في بيان الحزب الشيوعي، يصف ماركس كيف أحياناً يرضخ الرأسماليون للمطالبات الناشئة عن احتجاجات وإضرابات؛ في مرات أخرى يقاومون إلى أن تُنتزع التنازلات بالقوة. القوة النسبية للأطراف فقط تحدد طبيعة الصراع. الهدف لطريق ماركس هو الفهم أن الصراع ملازم في النظام الرأسمالي؛ هو موضوعي. الكيفية التي يختارها الاشتراكيون بشكل إستراتيجي ليفوزوا بالصراع تعتمد على عوامل كثيرة، منها الطرق المتوفرة لهم ليفوزوا بتغييرات في النظام – هذا غير موضوعي. ولكن سواء أعجبنا ذلك أم لا، تحتاج دائمًا الطريقة التي فيها السلع تُنتَج تحت الرأسمالية إلى الصراع بين الطبقات؛ يريد العمال أكثر بينما الرأسماليون يريدونهم أن يملكون أقل فأقل.

أما "الإسقاط" فينظر ماركس إلى الكيفية التي أُنهِيَتْ النظم السابقة للإنتاج وغُيِّرَتْ إلى أشكال جديدة: من الصيادين-الجامعين إلى مجتمع عسكري إلى مشيخات ومملكات عبودية إلى الإقطاعية ثم إلى الرأسمالية.

صحيح أن هذه التحوّلات اتصفت بشكل عام بفترات المنافسة العنيفة لكن (مثل الداروينية)، دراسة تاريخية قد عرضت أن الانفجارات العنيفة ما كانت الوسيلة الرئيسية ولا الوسيلة الوحيدة للتغيير. في الحقيقة، عقود أو حتى أحياناً قرون من التغييرات أكثر صغراً تراكمت على طول الوقت لتضع ضغط على نظم موجودة ولتُحدث تغييرات كبيرة. بشكل خاص هذا حقيقي بالنسبة للرأسمالية التي لم تنشأ في أوروبا على الفور بعد أن قطع الفرنسيون رؤوس كافية لنبلاء بل نشأت تدريجياً على طول فترة طويلة حتى في القرن الرابع عشر. نمو المملكات المشابهة للدول والمدن التجارية الحرة والتغييرات المتزايدة في التكنولوجية والتحسُّنات في التواصل واللوجستيات والتغييرات في النظم القانونية كلها تآكل أساس الإقطاعية؛ كانت الثورة الفرنسية جزءاً واحدًا من عملية تغيير أطول وأوسع .

ربما الفكرة الأكثر مُساءة للفهم هي فكرة "ديكتاتورية البروليتاريا" التي نشأت عن بيان الحزب الشيوعي وعن عمل اسمه "نقد برنامج غوتا" لكنها تُفسَّر بحسب النظريات اللاحقة لفلاديمير لينين. لا تعني ديكتاتورية البروليتاريا الرعب الثوري ضد أعداء الطبقة وموت الحرية. هي تعني شيئاً بسيطاً: انظر حولك. هل ترى كيف في ديمقراطيات السوق الحر القوة السياسية تُحتكَر (أو تقريباً تُحتكَر) من قبل الطبقة المالكة؟ ديكتاتورية البروليتاريا تعكس هذا فحسب. للماركسيين، تعني ديكتاتورية البروليتاريا بشكل بسيط فترة حيث القوة السياسية تُحمل وتُشارك لفائدة الطبقة العملية. يستلزم التوصّل على هذا الهدف أن الطبقة العملية تعرف أنها في الحقيقة طبقة واحدة وثم من اللازم أن تبدأ الطبقة بالتصرُّف في مصلحتها الذاتية. ليس من الضروري أن تترافق هذه الأحداث مع العنف.

الديكتاتورية سيئة. نعيش نحن اليوم تحت نوع من الدكتاتورية؛ دكتاتورية تصب في مصلحة الطبقة الرأسمالية. لا يعني هذا أنه ليس عند الطبقة العاملة الحرية؛ يعني هذا أن الدول التي نعيش فيها مصممة بالتحديد لتحمي نظام العلاقات الاجتماعية الرأسمالي . يستطيع بعض الأشخاص أن يمتلكوا وسائل الإنتاج بينما نحن البقية نحتاج إلى بيع عملنا لنعيش. تعكس دكتاتوريّة البروليتاريا هذه العلاقة: تنظّم هي الدولة لتحافظ على الامتلاك المشترَك لوسائل الإنتاج.

كان ماركس وإنجلز انتقاديين لحجج الأخلاق و"العدل" بالنسبة للاشتراكية لأن هذه الحجج تفتقر إلى سياق تاريخي؛ تفتقر هي إلى أساس منطقي بالفعل وهكذا هي شُكّلت من قبل مذهب الطبقة الحاكمة فقط. وليس هذا فريداً لماركس: فيلسوف معاصر اسمه بيرنارد ويليامز (والذي هو ليس اشتراكياً) بين فلاسفة الأخلاق المعتمدين الذين يرفضون الفكرة أننا نقدر أن نتوصّل إلى الفضيلة من خلال المنطق. تاريخياً , لم يتم إعادة تنظيم قوات الإنتاج التي تحدد إزدهار الإنسان , من خلال الحجة الأخلاقية , لقد تطلب الأمر انخراط في الصراع في المنافسة السياسية. ما حاول ماركس أن يشجع أن يقوموا الناس بالعنف. هو فقط كشف وقبل أن قوات الإنتاج تصنع الصراع الطبقي مما سيؤدي في النهاية إلى التغير في قوات الإنتاج.

نحن كاشتراكيين بعد ماركس، مثل علماء الأحياء بعد داروين، نقبل فحسب الحقيقة المادية للنظام الذي نعيش فيه. تعتمد قوات الإنتاج على الاستغلال لانتزاع "فائض القيمة" وتتطلب إلى تسليع العمل مما يجعل العمال يشعرون بالعزل. الصراع جوهري في النظام الرأسمالي. فقط عندما يصبح العمال واعين لأنفسهم كطبقة واحدة ويعملون لصالح أنفسهم فسوف يقومون بإنهاء النظام بثقة. لا يوجد هنا سؤال عميق عن الأخلاق؛ ليس هذا مرتبطاً بالعدل. يدور هذا حول الصراع بين الذين يسيطرون على قدرهم ولا يشعرون بالانعزال عن وسائل عيشهم (الرأسماليون) والذين يريدون نفس الحال لأنفسهم لكنهم يُمنَعون منه (الطبقة العاملة)

كلمة عن العنف. كمعظم الناس، أمقت العنف. يحط العنف من كرامة الفاعل كما يؤذي ضحاياه. لا يشجع ماركس العنف مع أنه يصنفه كنتيجة شائعة وجليّة عن فترات التغيّر العظيم في قوات الإنتاج — يعني، في فترات "الإسقاط". من اللازم أن نسأل أنفسنا إذا نجح التغيّر الاجتماعي الكبير في تجنُّب العنف ومِن اللازم أن نسأل أنفسنا أيضاً عن مصدر هذا العنف. فكرْ في حركة الحقوق المدنية الأمريكية، تُعتبر في الذاكرة التاريخية كأحسن مثال للتغير الناشئ من "اللاعنف". لكن ألم يكن هناك عنف؟ الحقيقة هي أن الدولة والأفراد تفاعلوا مع مطالب الأمريكيين السود بالعنف. كان هنالك عنف خلال حركة الحقوق المدنية لكنه لم يُطبق على نطاق واسع من قبل الذين يطالبون بحقوقهم. وعندما فازوا أخيراً بتلك الحقوق، ظهر نوع جديد للعنف — عندما قامت الدولة بمقاضاة وملاحقة مجموعات الكراهية بشكل جماعي مثل الكْلان، كان ذلك نوعاً من عنف الدولة الذي نعتبره مناسباً. فضلاً عن المهاجمات ضد الذين يقاتلون من أجل الحرية سواء كانوا ركّاب الحرية ومحامو الحقوق المدنية أو الفرد الذي يحمي بيته من غوغاء معدم — كلها تتميز بالعنف.

وماذا عن الحركة العمالية؟ من حراس خاصّين إلى الشرطة المحلية إلى الجيش الفدرالي، أُستُخدِم العنف بشكل روتيني ضد الذين بصدد القيام بالصراع ليفوزوا بالحقوق في مكان العمل. كانت الحركة العمالية الأمريكية في الحقيقة متميزة بالعنف، حتى أكثر من نظيراتها الأوروبية، خصوصاً في الغرب الجبلي حيث مخاوف تعدينية وطاقية استدعت بشكل روتيني قوات مسلحة لتُفسِد الإضرابات. كان الصراع عند العمال عبارة عن إضرابات وعدم امتثال؛ كان الرد هو العنفَ.

في الصراع التاريخيّ، أولئك الذين يتعلقون بالنظام المتعرض لهجوم هم الأوائل في اللجوء إلى العنف. لتكون ماركسياً لا يستلزم الايمان في انتفاضة مسلحة لإحداث عالماً جديداً ولا في التغير العنيف ولا في الاستبداد. تعني الماركسية الإدراك لشيء موجود من قبل: الصراع الطبقي. علينا تحديد التكتيكات والاستراتيجيات التي العمال يستخدمونها لبلغ الوعي الطبقي وليعملوا لإنهاء النظام الاستغلالي.

لماذا تتشابك الاشتراكية المعاصرة مع الماركسية هو الفهم لكيفية تقدُّم التاريخ وكيف هو سيتقدم؛ ليس الفهم مبنياً على الحجج الأخلاقية التي نقوم بها لكنه مبني على الأحوال الموضوعية التي نعيش فيها. لن يقاتل العمال ضد المبادئ التجريدية لكنهم سوف يقاتلون ضد ناس أحياء بمصالح مادية. في مقالة ماركس التي تدعى الثامن عشر من برومير لويس بونابرت، كتب هو "يصنع الناس التاريخ لهم لكنهم لا يصنعونه كما يحلو لهم ". لا نستطيع أن نغيّر العالم بالفعل إلا إذا فهمنا القوات الحقيقية التي تدور حولنا. إذا أردنا أن نغيّر العالم فمِن اللازم أن نكون نحن فيه ونبني منه؛ لنكون فيه بشكل حقيقي فمِن الضروري أن نفهمه. هذا يجعلنا ماركسيين.